صور وانطباعات :

الجيل الملهم

للأستاذ مناور عويس

« هلمي معي من لبنان ياعروس ، معي من لبنان ! ...
انظري من رأس أمانه ، من رأس شنير وحرمون ،
من خدور الأسود ، من جبال النمور ! ...
تحت لسانك عسل ولبن ، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان ! ...
يفيوع جنان ، بئر مياه حية وسيول من لبنان ! . .
طلعتك كلبنان ، فتى كالأرز ! ...
أنفك كبرج لبنان الناظر تجاه دمشق ! ... »

« نشيد الإنشاد »

الملك الشاعر الحكيم يتغزل بحبيبته فلا يجد شبيهاً لها أجل من لبنان .. فما سر لبنان ؟ وما هذا السحر الذي اتشح به لبنان منذ أقدم العصور حتى الآن ؟

الشعراء والفنانون ينشدون جمال لبنان ، والأنبياء يتغزلون بجمال لبنان ، والرعاة والفلاحون ينظمون العتابا والموال في حب لبنان ! ...

« إذا ذكر لبنان تواردت على الذهن مواكب من الصور والأخيلة والأشباح والأحلام ، وانتشرت في الأنف روائح الصنوبر والبخور والصعتر والفل والياسمين ، وانتصبت أمام الأعين غابات من الأرز والبلوط تعدو فيها الأسود والنمور والظباء ! »

فينيقياء ، عشتروت ، جبيل ، الأرز ، صور ، بعلبك ، حرمون ، قاديشا ! ... يا لها من أسماء صغيرة لها في النفوس الشاعرة فعل الصهباء ، ففي ذكر هذه الأسماء تلخيص لتاريخ الإنسان القديم وأديانه ، « فعلى شواطئ لبنان ازدهر العقل البشري وترعرع ، وعلى شواطئ لبنان استيقظت الروح في الإنسان فعبد الله في صورة عشتروت » . وفي غابات لبنان مثلت أروع أدوار الحب بين الآلهة كما تخبرنا بذلك الأساطير المصرية والفينيقية ، وفي جبيل تلك البلدة الصغيرة اليوم الواقعة بين طرابلس وبيروت مثلت أفجع مأساة للحب بين (إيزيس) و (أوزايرس) . ومن أمام الأرز الخالد ، الرافع رأسه نحو السماء ، الهازئ بالزمن ، الضاحك من الإنسان وغروره ، أجل من أمام الأرز مرت جيوش رعمسيس ، وجحافل القدونى ، وأبطال بومبي ، ومساعير معاوية ، وقوات السلطان سليم ، وعساكر ابراهيم باشا ... مرت كلها من أمام الأرز مطأطئة الرؤوس خاشعة الأبصار ، حكمت البلاد ودوخت الأمصار ، عمرت ما عمرت وخربت ما خربت ، ثم مضت لسبيلها :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
جليس ولم يسمر بمكة سامر !

وظل الأرز رافعاً رأسه نحو السماء يبتسم ابتسامته الأزلية !

وهذه صور التي كانت في ما مضى سيدة مدن فينيقيا ، صور التي وقفت في وجه الاسكندر العظيم وأرغمته وجنوده على تحمل البرد والجوع سبعة أشهر خارج أسوارها ، تراها اليوم قرية صغيرة أقرب إلى الخراب منها إلى العمران (فسبحان من رد عامرها خراباً وجعل أنسها وحشة) وأدال منها إلى سواها !

وهذه مدينة البعل التي شهدت عظمة فينيقيا واليونان والرومان ومجد العرب والترك ، ما تزال أعمدتها شاهدة على تفوق العقل البشري وجبروت الإنسان !

أي مدينة الشمس ! لقد وقفت إزاء آثارك خاشعاً لدى روعة الفن ، حالماً بأشياء غامضة لذيذة كالأماني ، ناعمة كأنفاس الربيع !

ثم هذان الشيخان الأزليان اللذان كلل الثلج هامتيهما ، واللذان كانا وما زالا رمزاً لعظمة لبنان وروعته وجلاله !

حرمون وصنين ! من وقف أمامهما ولم يحس بقرارة نفسه بالهيبة والوقار ؟ من شهدهما ولم يشعر بالخشوع والتأمل العميق ؟!

وكل من أسعده الحظ بزيارة « بشرّي » حيث الأرز الخالد ، وحيث يرقد رقدته الأبدية فقيد الشعر والفن جبران خليل جبران ، ومشى بضع خطوات إلى الجنوب أشرف على واد عميق رهيب ، وهوى سحيقة تبعث الرعب والخشوع في أقسى القلوب وتذكر الإنسان بالموت والفناء .

هذا الوادي هو وادي (قاديشا) أو وادي القديسين ، وقد دعي كذلك لأن النساك والمتعبدين في عصور المسيحية الأولى اتخذوا مغاوره معابد ، وكهوفه صوامع يتعبدون فيها ويتهجدون حيث الوحدة الشاملة المغبوطة ، والسكينة الخالدة ، التي لا يكدرها

غير هدهدة المياه المنحدرة من فوق الصخور على حصباء الوادى !

فينيقيا ، عشتروت ، جبيل ، بعلبك ، حرمون ، صنين ، الأرز ، قادیشا ... كلها أسماء تفيض شعراً وإلهاماً وتاريخاً ، إنها مصدر وحى للأديب لا ينفد ، ومورد عذب للفنان لا ينضب ، فقل أن تجد شاعراً أو كاتباً شرقياً كان أو غربياً يخلو شعره أو نثره من وحى هذه الأسماء الملهمة ، ذلك لأن لبنان فى نظر الشعراء والكتاب — الشرقيين منهم والغربيين — « غابات مسحورة تفوح منها روائح معطرة بأنفاس عشتروت وبعل وغيرهما من آلهة الفينيقيين وأبراج وقصور من المرمر والنحاس ، وأسود وثعور وظباء وأبائل وصوامع وهياكل وأنبياء وقديسين ! »

فهذا « لامرتين » شاعر فرنسا العظيم يزور لبنان ويستلهم أرزه فيوحى إليه بآيته الباقية ما بقى الشعر الفرنسى ، وأعنى بها (سقوط ملاك) . وهذا (رينان) الفيلسوف الشهير يأوى إلى أحد أديرة لبنان ليكتب كتابه الخالد « ابن الإنسان » ، وكذلك (شاتوبريان) و (هنرى بوردو) صاحب القصة الشهيرة « تحت ظلال الأرز » ، وهى قصة واقعية معروفة ، بطلها فتى مسلم من طرابلس ، وبطلتها فتاة مسيحية من بشرى ومسرحها الأرز ... وللشاعر الإنجليزى (شلى) مأساة شعرية رائعة عن موت (أوزايرس) وبعثه فى مدينة (جبيل) اللبنانية ، وكذلك الشاعر الخالد وليم شكسبير وغيرهما كثيرون

فلبنان شاعر وملهم الشعراء ، وأبناء لبنان شعراء بالفطرة ، « وكيف لا يكونون شعراء إذا سكنوا لبنان وتكحلت عيونهم ببهاء صنين ، وتنشقوا عطر الأزهار المنتشرة فى أودية الجبل ووهاده ، ونظروا إلى البحر الأزرق والسماء الصافية الأديم ، وأشرفوا على تلك القمم المزينة بالمعابد والقباب والأجراس ، وتظللوا بظل الأرز الخالد المرتفع فى الفضاء كأنه صلاة تصعد إلى العلى ؟! »

لقد طبع لبنان أهله بطابعه الخاص ، ففى أخلاقهم رقة نسيمه وصلابة أرزه ورسوخه ، وفى أدبهم ما فى لبنان من عذوبة وجمال وسحر وروعة ... لقد جرى حبه فى قلوبهم مجرى الدم ، فهذا شاعرهم داود عمون يوصى قبل موته بأن يجعلوا من ثلج لبنان كفنه ، وفى ظل الأرز ضريحه :

يا بنى أمى إذا حضرت ساعتى والطب أسلمنى
فاجعلوا فى الأرز مقبرتى وخذوا من ثلجه كفنى !

طالما تناقش الشعراء والكتاب قديماً وحديثاً فى وصف لبنان وتصوير جماله ، فلا ترى شاعراً زاره أو مر به إلا ألهمه من الشعر أطيبه ومن النثر أطربه . فالتقى شاعر العظمة الذاتية والطموح يمر بلبنان فلم يثنه طموحه ولم تنسه مطامعه أن يصف وعورة مسالك لبنان وصعوبة قطع عقابه :

وعقاب لبنان ، وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء ؟ !

ويزوره شوقى لأول مرة فيروعه فيهتف :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منهما ملكوته !

ولحافظ ومطران والرصافى والزهاوى وغيرهم من كبار شعراء العربية فى لبنان ما يسكر ويرقص ... ومن أروع الشعر ماخاطب به الشاعر العبقرى الياس أبو شبكة لبنان :

لبنان ! ياريف السماء وثغرها ! فى كل شبر من ترابك ملهم !
ما أنت بالبلد اليتيم وإنما فى كل عين لا تراك تيتم !

أما شعراء المهجر وعلى رأسهم جبران ونعيمه والقروى والريحانى وأبو ماضى وفرحات والمعلوف وغيرهم ممن لا تحضرنى أسماؤهم الآن ، فقد جعلوا من لبنان وطناً روحياً يحجون إليه بأرواحهم ويلهجون به فى يقظتهم ومنامهم ، فأبدعوا لنا من تغنيهم بلبنان والحنين إلى لبنان أدباً جديداً وروحاً جديدة لم نعهدها فى الأدب العربى من قبل ، فرفعوا بذلك رأس الضاد عالياً ، ولفتوا أنظار الغرب إلى هذا الشرق الحالم المتأمل الذى تتلمذوا عليه فى ما سلف من الزمان وقبسوا من أنواره ، والذى سوف يعودون إلى أحضانه حينما ترهقهم هذه الحياة المادية التى يرزحون اليوم تحت أعبائها الثقيلة ... !

فبلد تحج إليه قلوب الناس من جميع أقطار المسكونة ، وتحلق فوقه أرواح الشعراء والملهمين من جميع الأمم والأجناس ، بلد ينجب الأبطال والبابوات والقياصرة العظام ، وينشىء الفلاسفة الأفذاذ والشعراء والكتاب والفنانين والقديسين ...

بلد من أبنائه ميخائيل نعيمه وجبران والريحانى وهى لاشك فى أنه بلد جدير بكل عربى القلب واللسان أن يحبه ويكبره ويتعلق به ، لأنه من البلاد العربية كالقطب من الدائرة ، وكالقلب من الجسم ... فحيا الله لبنان وأبناء لبنان !

(يافا) صاور عويس
مدرس الأدب العربى بكلية تراسانطه يافا